شوبنهاور

بين التشاؤم الميتافيزيقي والتفاؤل الرومنطيقي

الأستاذ الدكتور صالح شقير*

الملخص

يمكن النظر إلى شوبنهاور بوصفه واحداً من الفلاسفة الذين تبدو لـديهم الفلـسفة شديدة الارتباط بحياتهم الخاصة، إذ إن كتاباته الفلسفية كلها تبدو وكأنها فـصول فـي سيرته الذاتية معبرة عن حياته الخاصة وعن ردود فعله تجاه مجريات هذه الحياة.

كثيراً ما يعرف شوبنهاور بفيلسوف التشاؤم ولكن هذه العبارة تحتاج إلى مـساءلة ونقاش، فما هو التشاؤم، الذي يطرحه شوبنهاور؟ هل هو تشاؤم سيكولوجي، أم إنـه تشاؤم ميتافيزيقي؟

تعد فلسفة شوبنهاور من الفلسفات الحية مع ما فيها من تناقضات. ولكـي تكـون الفلسفة صورة صادقة للحياة لا بد لها من أن تنطوي على ما في الحياة من تنـاقض. كما يمتاز شوبنهاور عن غيره من الفلاسفة بدراسته المباشرة للأشياء كما تقع تحـت حسه مباشرة.

وصفوة القول، إن فلسفة شوبنهاور تقوم على وجدان أو حدس أو رؤية، فهي ذات طابع صوفي وجداني، وهي فلسفة قائمة على التجربة. فقد اتسم أسلوبه "في كتاباتـه" بالرصانة والشفافية والوضوح، وقد كان لهذا الأسلوب الصادق أكبر الأثر في انتـشار فلسفته عالمياً.

* قسم الفلسفة- كلية الآداب- جامعة دمشق

يمكن النظر إلى شوبنهاور بوصفه واحداً من الفلاسفة الذين تبدو لـديهم الفلـسفة شديدة الارتباط بحياتهم الخاصة، إذ إن كتاباته الفلسفية كلها تبدو وكأنها فـصول فـي سيرته الذاتية معبرة عن حياته الخاصة وعن ردود فعله تجاه مجريات هذه الحياة.

كثيراً ما يعرف شوبنهاور بفيلسوف التشاؤم ولكن هذه العبارة تحتاج إلى مـساءلة ونقاش، فما هو التشاؤم الذي يطرحه شوبنهاور؟ هل هو التشاؤم المتداول كثيراً بمعنى أن يتوقع الإنسان التوقعات السيئة دوماً، ويفقد الإحساس بالجميل والمبهج في الحياة ، الشعور الذي يجعل من الحياة مؤلمة وسـوداوية، بمعنـى آخـر هـل هـو تـشاؤم سيكولوجي، أم إنه تشاؤم من نوع آخر؟

مما لا ريب فيه أن تشاؤم شوبنهاور هو أقرب إلى التشاؤم الميتـافيزيقي. فلـيس لهذا التشاؤم علاقة ضرورية بالمزاج الخاص بل هو موقف معرفي من العـالم. هـو معرفة مؤداها أن هذا العالم، عالم لا يحتوي معنى يستحق العـيش وأن الإرادة التـي توجه الإنسان وتحركه هي إرادة عمياء بلا منطق، عالم مليء بالشرور والآلام. داخل هذه المعرفة يمكن أن يفهم الإنسان الأحداث، بل يفهم حياته بأكملها، ومن ثَم فإن هذه المعرفة تعين الإنسان على الحياة وتحميه من الصدمات وخيبات الأمل التي قـد يقـع فيها. ومن هنا يمكن أن نرى التفاؤل داخل هذا التشاؤم، بمعنى الوعي بطبيعـة هـذا العالم، ومن ثَم السكون والهدوء تجاهه والتخلص من الفزع والصدمات... ومن هنـا نفهم علاقة شوبنهاور بالفلسفة الهندية التي تقدس الزهد والتـشبث بالحيـاة لأن هـذا التشبث بالذات هو سر آلام الإنسان كلّها. وعلى هذا النحو فإن تشاؤم شوبنهاور لـيس مجرد مشاعر تجاه الحياة والآخرين، بل هو بناء فلسفي يبدأ من نظرية في المعرفـة ونقاش معمق لأبرز الآراء في المعرفة والتعرف، ومن ثَم فإن تشاؤم شوبنهاور هـو تشاؤم يمكن مناقشته بالعقل والمنطق وليس بأدوات أخرى.

كان تشاؤم شوبنهاور يعتمد على اعتقاده أن الرغبة لا يمكن إشباعها في الواقع. وطبقاً لرأي شوبنهاور، فإن الرغبة إما أن تكون كفاحاً من أجل تحقيق شيء لم تحققه بعـد، لسوء الحظ، أو أنها تمارس الملل الذي يعقب تحقيق الهدف بطريقة ثابتـة. مفترضـاً استحالة إشباع كفاح الرغبة دوماً، فإن شوبنهاور ينصحنا بأن نبعـد أنفـسنا -بقـدر الإمكان- عن هذا الكفاح. ويقترح إحدى الطرائق المهمة لتحقيـق هـذا الانـسحاب بوساطة التأمل الهادئ للجمال الطبيعي والفني[1].

من الملاحظ أن تشاؤم شوبنهاور ناجم عن وجهة نظره الرومانتيكية والآمال الكبيرة التي علقها على المستقبل. إن الشباب واسع الآمال ويتوقع كثير من العالم، والتـشاؤم هو الصباح الذي يعقب أمس التفاؤل. إن التمجيـد الرومـانتيكي وتحريـر الـشعور والغريزة والإرادة، والاحتقار الرومانتيكي للعقل، وكبح المشاعر، والنظـام... هـذه الأمور كلّها انتهت بأن يدفع العالم ثمناً باهظاً لها. وعندما تبين للرومانتيكي أن مثلـه الأعلى في السعادة قد انتهى به إلى شقاء حقيقي، لم يوجه اللوم إلى مثله الأعلى، بـل وجه اللوم إلى العالم، وإن هذا العالم ليس جديراً بإنسان منظم مثله[1(2)].

يبدو شوبنهاور غريباً بين الفلاسفة، في نواح عدة من شخصيته. فهو متـشائم فـي حين يكاد الفلاسفة الآخرون أن يكونوا كلهم، بمعنى ما، متفائلين. وهو ليس أكاديميـاً تماماً مثل كانط وهيجل، لكنه لا يقف خارج العرف الأكاديمي بالمرة. وهو ذو ثقافـة واسعة، كما أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالفن اهتمامه بالأخلاق. وهو متحرر تحرراً غيـر مألوف من النزعة القومية، فهو يحس بأنه في وطنه مع الكتّاب الإنكليز والفرنـسيين،

1- انظر: محمد جلوب الفرحان، اتجاهات الفلسفة الألمانية المعاصرة، أوراق فلـسفية جديدة،المجلـد الثالث/العدد6/ ربيع 2012، مركز دريد للدراسات، لندن،ص23ـ25.

2- ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح ا محمد المعشعش، ط6، مكتبة المعارف بيروت 1988، ص445.

3- Russell, B. History of western philosophy, London 1747,p.162.

إحساسه مع كتّاب بلاده (ألمانيا). وهو يقر بثلاثة منـابع لفلـسفته (كـانط وأفلاطـون والاوبانيشاد)، ولكنني أظن انه يدين لأفلاطون بالقدر الذي يظنه هو[3].

والحق أن شوبنهاور من أكثر الفلاسفة ذاتية وغرابة أطوار في الأزمان الحديثـة، فهو، فيلسوف الإرادة من دون منازع، وصاحب واحد من أبرز الكتب الفلسفية التـي عرفتها البشرية خلال مئتي عام "العالم كإرادة وتصور".

بدأ شوبنهاور حياته الفلسفية "التأليفية" بكتابه "الأصل الرباعي عام 1813 وهو فـي الأساس رسالة حاز بها درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة يينـا وعـرض فيهـا نظرية في المعرفة مبنية على رأي كانط في مثالية الزمان والمكان والمقولات. ويعـد هذا الكتاب اعتماداً على نصيحة شوبنهاور نفسه، مدخلاً ضرورياً لفهم كتابه الأساسي المعروف باسم "العالم كإرادة وتصور. يناقش شوبنهاور في كتاب الأصـل الربـاعي نظرية المعرفة من زاوية مشكلتها الرئيسة وهي مشكلة الإدراك الحسي. فهو يرى أن الحواس لا تتيح لنا عن الأشياء إلا معرفة بسيطة لا تصلح لتكوين معرفـة بـالمعنى الصحيح، وأن الذي يتولى هذه المسألة بالفعل هو ملكة ذهنية في الأساس هـي ملكـة الإدراك. الأمر الذي يترتب عليه أن يصبح الإدراك عملية عقليـة بالكامـل وليـست حسية[1(4)]. وكطريقة أخرى لقول الشيء نفسه، فإن الذهن هو الذي يكون صورة العالم الخارجي بما تحفل به من تنوع وثراء. وقد سبق لكانط أن أثبت وجود عناصر معينة في الذهن سماها المقولات الاثنتي عشرة وجعلها هي المسؤولة عن تكـوين صـورة العالم الخارجي كما تبدو للذهن. وقد أخذ شوبنهاور برأي كانط لكنه لم يحـتفظ مـن مقولاته إلا بمقولة العلية وحدها ثم أضاف إليها صورتي المكان والزمـان، وعـدهما

4- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، القرن 19، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعـة بيـروت ط1، 1985، ص 284.

5- ول ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص 441.

6- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، مرجع سابق، ص 286 .

كالعلية وظيفتين باطنيتين للذهن. فما نراه كلّه وما يخطر على الذهن هو إما علـة أو معلول، يحتل مكانا ويمر في زمان. فعن طريق هذه الصور الثلاث ينظم الذهن العالم ويتمثل شكل العلاقات بين مختلف الأشياء الكامنة فيه. ولذلك يصف شوبنهاور هـذه الصور بأنها أولية، بمعنى أنها سابقة على التجربة وضرورية لقيام أي تجربة. وهـذه الصفة التي تجعل الأشياء معتمدة على الذهن ومرتبطة بعضها بعـضاً فـي الإطـار الذهني، هي ما يسميه شوبنهاور مبدأ السبب الكافي(5).

مما لا ريب فيه أن شوبنهاور (1788ـ1860) أحد أقطـاب الحركـة الفلـسفية الألمانية التي ترجع أصولها إلى كانط، يقترب شوبنهاور من كانط ويبتعد عنه. يقترب منه لأنه يوافقه على التمييز بين عالم النومينات وعالم الفينومينات، ويبتعد عنه لأنـه أعطى للمفهوم مدلولاً جديداً. النومين عند كانط هو الشيء في ذاته، المبدأ الأول الذي يستمد وجوده من ذاته، مبدأ الواجب المؤسس للأخلاق، النومين روح العالم، والـروح هي الأخلاق. النومين عند شوبنهاور هو الإرادة، والإرادة روح العالم. لـذلك كـان شوبنهاور يستنكف من مبدأ الواجب الأخلاقي ويرفضه . والفينومينات عند شوبنهاور هي التمثلات، والتمثلات أوهام(6). العالم بالنسبة إلى الإنسان وهم ، والإرادة جـوهر الوجود.

الإرادة هي النزوع نحو الوجود ، الرغبة في إثبات الوجود . وأما الإرادة الأولى فهي الإرادة الكونية، القوة السارية في الكون، الدافع الغريـزي الحيـوي . لا دخـل للإنسان فيه ما دام الإنسان هو آخر ما انبثق عنه من الكائنات. لـيس الإنـسان سـيد الكون لأنه المنتج الأخير للإرادة الكونية، آخر تجلٍ من تجلياتها، هو الحلقة الأخيـرة في سلسلة الكائنات، ولكن الإرادة بلغت فيه كمالها، به وفيه حصل لها الوعي بذاتها .

حاول كل من كانط وشوبنهاور إثبات أننا نعرض موضوعات، كما هي موجـودة في الزمان والمكان، ونحن نقوم بعرض الأحداث بعد أن يتوافر لدينا الـسبب. ولكـن

طبقاً لهذين الفيلسوفين، فإن المكان والزمان والسببية ليست في الواقع ملكاً للحياة، بـل نضيفها إلى تجربتنا في الحياة، فهي هياكل نستخدمها بالضرورة دوماً لتنظيم تجربتنا. لكن الثمن الذي ندفعه لهذا النظام لا يعرف قط الحياة كما هي في الواقع، أي كما هـي بعيداً عن الهياكل التي أضفناها إلى الحياة كما نحياها. ويرى شوبنهاور أننا نـستطيع على الأقل أن نعرف أنفسنا من دون إضافة هذا التشويه[(7)][1]. وكما عبر شوبنهاور عن ذلك، فإننا نمارس أنفسنا رغبة مثلما نمارسها عرضاً. وبمعرفة أنفسنا رغبـة، فـنحن نعرف أنفسنا بعيداً عن هياكل المكان والزمان والسببية، لذلك فإننا نعرف أنفسنا كمـا نكون تماماً. ووفقاً لمفهوم شوبنهاور، فإن الرغبة هـي الطبيعـة الداخليـة الحقيقيـة للحياة[(8)].

ما تعرفه الثقافة العربية عن فلسفة شوبنهاور هو بخاصة التراث التشاؤمي، لكـن يبدو أنها لم تقرأ بعد فلسفة التفاؤل لديه، وخاصة كتابه"العالم كإرادة وتـصور 1818" الذي سيكون أحد مصادر بحثنا الرئيسة، ربما يساعدنا، مـع المـصادر والمراجـع الأخرى، على فهم طبيعة شوبنهاور الرومانسية، الثائرة على النزعات العقلية، القائمة على ضرب من التشاؤم الميتافيزيقي مع العالم، والنابذة للمذهب المـادي، والمهتمـة بالإنسان ومصيره.

إن غرضنا من هذا البحث هو رصد فلسفة شوبنهاور وإعادة قراءتها في سـياق لغة نقدية جديدة. وعلى هذا النحو حاولت هذه الدراسة طرح جملة تساؤلات والإجابة عنها، رغم أننا، مسبقاً، لا نمتلك أجوبة قاطعة عن الأسئلة التي أثرنا الجدل فيها، بـل نمتلك فقط شجاعة إبداء الرأي في هذه الأجوبة، ومحاولة تقديم إجابات تحتاج بدورها إلى إغناء مستمر.

7- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل، ترجمة ت. ب. هالدين، ج. كيمب، لندن بوثلدج وكيجان بول 1833، ط9، مجلد1،ص 491.

8- المرجع السابق نفسه، ص130،129 .

تُرى ما شروط العبقرية الفلسفية؟ وكيف نظر شوبنهاور إلى المرأة؟ أين تكمـن أهمية فلسفته؟ ثم ما سر تأثير فلسفة شوبنهاور غربياً، وإخفاقها عربياً؟

هذه هي الأسئلة التي سوف نحاول الإجابة عنها في هذا البحث الفلسفي المتواضع.

أولاً- شروط العبقرية الفلسفية

يقول نيتشه إن شوبنهاور توافرت فيه وفي وقت مبكر من حياته الخصائص التي تخلق العبقرية الفلسفية... يضع نيتشه أول الشروط التي توفرت في شوبنهاور، شرط تحرر الشخصية. فشوبنهاور كان شخصاً متحرراً منذ الطفولة بسبب التربيـة التـي وفرها له أبوه وأمه. تحرر الشخصية هذا يعني قدرة الإنسان على اتخاذ موقف واتجاه وقرار، إنها تعني الفاعلية والجرأة والمبادرة. وبالتأكيد إن الفيلسوف يحتاج إلى هـذه المواصفات لينجز فلسفته. فشرط الفلسفة أن تكون مختلفة وجديدة وتمثل إضافة وهـذا كلّه يحتاج إلى شخصية متحررة اعتادت على الاستقلال وتنفر طبيعيـاً مـن التبعيـة والخضوع للغير. التربية الصحيحة تعني بتحقيق هذا الهدف، وفي عصر التنوير الذي عاش فيه شوبنهاور كانت الشخصية المستقلة أحد أهداف التربية المتنـورة لأن قيمـة الإنسان الحقيقية تكمن في مدى استقلاله وتفرده. نحن هنا في مقابل التربية التقليديـة التي ترى أن قيمة الإنسان تكمن في كونه مطيعاً ويسمع الكلام ويتبنى أفكار المجتمع المحيطة به وقيمه. هنا شخصية تابعة منقادة وهناك شخصية مستقلة فردية.

الشرط الثاني الذي رأى نيتشه أنه توافر في أستاذه، الذي نقـده كثيـراً، شـرط المعرفة المبكرة بالطبيعة البشرية. وشوبنهاور صاحب موقف واضـح مـن النـاس، ورؤية لا تتوقع من الناس خيراً بل تعد أن السلامة من شر الآخرين مكـسباً كبيـراً. يرى شوبنهاور أن الإنسان تحركه إرادته التي هي رغباته وأهواؤه وشـهواته. وفـي الغالب أن يكون عقل الإنسان تبعاً لهذه الإرادة العمياء. لا يختلف نيتشه عـن أسـتاذه

كثيراً في هذا الموقف الأولي، وهو يرى أن توصل أستاذه لهذا الحكم مبكراً عجل في ظهور عبقريته الفلسفية.

نظرة شوبنهاور هذه إلى الناس ساعدته أكثر في التفرد والاعتماد على التأمل الخاص للوصول إلى المعرفة. إن شوبنهاور يجلّ كانط كثيراً ويعده أعظم العقول التي خرجت منذ ألفي سنة ولكنه مع هذا ينتقده، ويسجل كثير مـن الملاحظـات علـى فلـسفته.
الشرط الثالث للتفلسف عند نيتشه هو التحرر مـن التربيـة المدرسـية الرسـمية. فشوبنهاور لم يرتبط بتربية مدرسية مكثفة فقد كان يدرس في طفولته بشكل مـستقل، مع معلم خاص ولم يتوافر له العمل في الجامعة حتى بعد حصوله على الدكتوراه. هذه الظروف ساعدته على التحرر من التربية المدرسية أي التربية التي تلتزم بتعليمـات مدرسية وأنماط وطرائق محددة يصبح الخروج منها مع الوقـت صـعباً. ومـن ثـم فالتحرر من التربية المدرسية والقوالب المسبقة شرط للتفلسف الحقيقي الذي لا يعرف حدوداً ولا قوالب.

الشرط الرابع هو شرط التحرر من التحديدات القوميـة. وبالتأكيـد هـذا معيـق للتفلسف الحقيقي لأن المفكر يتخلى هنا عن البحث المعرفي الحقيقي من أجل الانخراط في دعاية قومية تتطلب كثير من التزييف والانحراف عن الحقيقة. تخلى شـوبنهاور عن الدعاية الجرمانية مبكراً واستطاع التحليق بحرية في آفاق المعرفة الواسعة.

الشرط الخامس الذي حقق لشوبنهاور العبقرية الفلسفية هو التحـرر مـن طلـب الرزق اليومي. فبسبب غنى والده لم يكن مضطراً للعمل اليومي مـن أجـل كـسب الرزق، وهذا شرط من أصعب الشروط وإحدى إعاقات الإبداع بشكل عام في الـدول الفقيرة ، فالمبدع يضطر يومياً لصرف كثير من الوقت والجهـد مـن أجـل تـوفير مصروف حياته، وتزداد المشكلة عند وجود أسرة وأفراد كثر. في الدول التي ترعـى الإبداع يخَلص المبدع من هذا الشرط ويفَرغُ للبحث وتخليصه من هذا الهم اليـومي.

الاستقلال المادي يوفر لصاحبه استقلالاً فكرياً أيضاً فهو يبقى حراً دون ارتباط بجهة معينة تهدده باستمرار، بقطع رزقه وتلوح له بالفقر والجوع باستمرار وهنـا تحديـداً نصل إلى الشرط السادس والأخير.

هذا الشرط هو شرط التحرر من السلطة. بمعنى أن شوبنهاور كان متحرراً مـن الارتباط الوظيفي والأيديولوجي بالسلطة في عصره، ومن ثَم استمتع بحريـة اتخـاذ المواقف دون ضغط من أحد. كان من أهم نقد شوبنهاور لمعاصـره هيجـل أن هـذا الأخير تورط في العلاقة بالسلطة وأصبح جزءاً منها؛ مما أدى به إلى التخلـي عـن التجرد للحقيقة وممالأة السلطة في وقته[(9)][1].في الختام يجمل نيتـشه الـشروط التـي توافرت في شوبنهاور بشرط الحرية الذي يشمل هذه الشروط السابقة كلّها[(10)].

إن التعارض والاختلاف الفلسفي بين شوبنهاور ونيتشه لم يمنـع الأخيـر مـن إنصاف شوبنهاور. إذْ قال: إن شوبنهاور أثر في ألمانيا الحديثة، إن غيظه الأحمق من هيجل أدى به إلى حل الترابط بين الجيل الألماني الأخير كله والحضارة الألمانية التي كانت ذروة للحاسة التاريخية وصقلاً للتكهن التـاريخي[(11)][2]. فقـد أطّـر الفيلـسوف شوبنهاور نظريته بعد ما تصور أن الإنسان يدور في حلقة مفرغة، وهو في الحقيقـة اتهام لنظام العالم، ونفي لإرادة الحياة وتشريع مناقض لها، إنها فلسفة الإدانة ألتي أدت به إلى التشاؤم. والواقع إنّه قد يكون محقّاً في ذلك فلن يتفاءل إلا شخص سـاذج لـم يدرك حقيقة الوضع الإنساني وخفاياه وأسراره.

9- انظر: فريدريش نيتشه، العلم الجذل، ترجمة سعاد حرب، دار المنتخب العربي 2001، ص 96ـ 99 .

10- عبدا المطيري، شروط التفلسف، صحيفة الرياض السعودية، مؤسـسة اليمامـة الـصحفية، 2008/9/18/ العدد 14696.

11- فريدريش نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ص 97.

ولما جاء "نيتشه" وجد باب التطاول مفتوحاً أمامه لإدانة نظـام العـالم، فـصرخ كالمجنون منادياً إن ا قد مات، وهبوا لتلبية غرائزكم واستمتعوا بما لذّ وطاب .. لقد مات الحارس أو الجلاد أو الرقيب(الإله)..[1(12)] هذه الفلسفة هي فلسفة غير مقبولة في العصر الراهن لدى العقلاء، وأن فلسفة شوبنهاور التي مهدت الأرضية لفلسفة نيتشه هي ثورة روحية فكرية متشائمة مهزومة وعاجزة عن التأقلم مع الواقع، لذلك حـاول نيتشه أن يأتي بحلٍ للموضوع. وكان حلّه هو تلبية صـوت الطبيعـة فـي الوجـود الإنساني، صحيح أن جذور فلسفة شوبنهاور هو بحث في الغرائز واللذة ولكن هدفـه كان سامياً وهو الظفر بالسكينة، وواضح أن هذا الهدف هو هدف روحي، وأن الهدف الذي شخّصه نيتشه لا يتلاءم مع جذور المشكلة لكونه عاد بالإنـسان إلـى المرحلـة الحيوانية، وكأنّه رد فعل سلبي ضد حرمانٍ طال أمده، أو كانتقام ضد الجلاد (الإلـه) عما يصفون، وبذلك حذف نيتشه ومعاصروه جميع ألقيم ألسماوية واعتبروها خطيئـة وسلاحاً للضعفاء.

حاول نيتشه إخراج دور (الإرادة) في فلسفة شوبنهاور بعدما تأثر بأفكاره تـأثراً بالغاً، فأضاف مفهوم القوة إلى الإرادة، بجعل إرادة القوة والسيطرة أساس العقل الكلي الذي يحكم الوجود كلّه[(13)]، فافتتح بذلك طريقاً بين الفلسفة الوجودية التـي أتـى بهـا سارتر فيما بعد في بحثها عن مدى معقولية – لا مجرد فهم – ما نحن فيه من وجـود وتواجد. وربما كان ذلك هو ما حول فلسفة شوبنهاور من مجرد فكر تشاؤمي لا قيمة له إلى مبحث فلسفي له أساس فكري مختلف عن غيره.

12- فريدريش نيتشه، عدو المـسيح، ترجمـة جـورج ميخائيـل ديـب، ط2، دار الحـوار د.ت. ص135،136.

13- فريدريش نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ص97، 98 .

لا نجانب الصواب إذا ما قلنا: إن أفكار شوبنهاور نجدها حاضرة بقوة عند نيتشه. فقد علّمه أستاذه أن الوعي لا يحدد الحياة، لذلك رفض العقل كوسيلة لفهـم الإنـسان. غلب عليه التشاؤم مثل أستاذه، ووجد الخلاص مثله في الفن، وفي الميتافيزيقا.

بقي أن نقول: إن نيتشه وشوبنهاور يتمتعان بأسلوب أخاذ لكنهما يفعلان ذلك على حساب الفكرة التي تخرج وكأنها من أفـلام الخيـال التـي لا علاقـة لهـا بـالواقع وبالمنطق[1(14)].

ثانياً- نظرة شوبنهاور إلى المرأة:

يزعم شوبنهاور إنه ورث من أبيه خلقه وإرادته، وعن أمه ذكاءها. فقد بلغت أمه أوج الشهرة في عالم القصص والروايات، وغدت أحد مشاهير كتاب القصة في ذلـك الوقت. لم تكن أمه سعيدة في حياتها مع زوجها الذي لم تساعده ثقافته على الامتـزاج معها، وعندما توفي زوجها انطلقت تبحث عن الحب المتحرر بعد أن تحـررت مـن قيود هذه الحياة الزوجية. وارتحلت إلى مدينة "فايمار" التي تنسجم مـع هـذه الحيـاة المنطلقة التي كانت تتوق لها. وقد ثارت ثورة شوبنهاور على هذا الاتجاه الجديد مـن أمه، وأثر النزاع بينهما في نفسه وأثار فيها مقته الشديد للنساء الذي رافقه طيلة حياته، ولا يسعنا هنا إلا أن نسرد فقرات من خطاب أرسلته له يصور لنا مدى النـزاع بـين الأم وولدها. إذْ تقول له: "إنك عبء ثقيل لا يطاق، والحياة معك عسيرة لا تحتمل. فقد طغى غرورك بنفسك على صفاتك الطيبة كلّها. وغدوت لا فائدة ترجى منك لعجـزك عن منع نفسك من أن تسقط هفوات الناس وعيوبهم"[(15)] . وهكذا تم الاتفاق بينهما على أن يعيشا منفصلين بعد أن تعذرت الحياة بينهما وأصبح شوبنهاور لا يتردد على منزل

14- فرانكلين، ل، باومر، الفكر الأوربي الحديث، ج3، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المـصرية العامة للكتاب، القاهرة 1989، ص139.

15- ول ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص 388، 389 .

أمه إلا كما يتردد عليها الضيوف والزوار من وقت إلى آخر. وكانت الكلفة والمجاملة المصطنعة تطبع هذه الزيارات تماماً كما يطبع التكاف المصطنع حديث الأغـراب لا حديث الأم لولدها. وقد زاد في توتر هذه العلاقـة أن جوتـه الـذي كـان يحـب أم شوبنهاور، قال للأم يوماً بأنه سيكون لولدها شأن عظـيم وسـيغدو رجـلاً مرموقـاً ومشهوراً. وقد أثارت هذه الملاحظة استياء الأم وغيرتها من منافسة ولدها لهـا فـي شهرتها، فهي لم تسمع بظهور نابغتين في أسرة واحدة. وأخيراً في ذروة نزاع بينهما، دفعت الأم ولدها ومنافسها في نبوغها من أعلى درج منزلها. ولكنه لملم نفسه ونفض الغبار عن ثيابه، وقال لها بصوت مختنق من المرارة والحسرة، لن يـذكرك التـاريخ بشيء غير أنك كنت أم شوبنهاور1[16]. وأسرع فيلسوفنا في مغادرة مدينة فايمار ومع أن أمه عاشت بعد ذلك أربعة وعشرين عاماً فإنه لم يراها بعد ذلك الحادث بينهما. وقد انتهى به هذا الحرمان من عطف أمه إلى التشاؤم.

لعل الناظر إلى فلسفة شوبنهاور بعين المتأمل يجد أن هذه العلاقة بينه وبين أمـه بالتحديد أصبحت تطفو من عمق اللاوعي إلى سطح الفكر المكتوب عنـد شـوبنهاور بشكل جلي وملحوظ، ففلسفة شوبنهاور تنبذ الشهوة بأشكالها كلّها وتحث على اجتنابها بكل ما في الإنسان من طاقات، وهي أيضاً فلسفة تتجاوز الجسد وتبحث عن الاتـزان في ثنايا الروح السامية، ونتيجة لهذا الطرح التأديبي للإنسان يخرج علينا شـوبنهاور باحتقار المرأة فهو يحتقر المرأة كل الاحتقار، ويلمح في كتاباته: إن المرأة هي عائق كبير وضع بين فكرة استقامة العالم وإرادة تحقيق هذه الاستقامة، بل يجعل من المرأة (النبت الحيواني للجنس البشري)[17]، لكن أي امرأة يقصد شوبنهاور؟.

16- المرجع السابق نفسه، ص 389.

17- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، مرجع سابق، ص 289.

18- جيل دولوز، نيتشه، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنـشر والتوزيـع،ط1، بيروت 1998، ص 57.

الحقيقة أن شوبنهاور يرى في ذهنه دوماً والدته مثالاً للمرأة ويخرج من الخـاص لعملية تعميم قد تكون صاحبة حالة من الانحلال في عصره بالتحديد، لكـن علـى أي حال تظل والدته هي إحدى دعامات رفضه الصريح للمرأة والتعاطي معها كمخلـوق متزن ومتعاون إذْ كان الخلاف بينهما شديداً وقاسياً. لعل حالة الكـره للنـساء التـي أصابت فلسفة شوبنهاور جعلت العديد من الباحثين أمثال راؤول بريك يبحثـون فـي تضاعيف حياة شوبنهاور الخاصة والعائلية فأصدر راؤول بريك الباحث الألماني كتابا اسمه (الأم والأنثى والبغض في حياة شوبنهاور).

وحقق الكتاب نجاحا لا بأس به وترجم إلى الإنجليزية، ويتناول الكتاب العلاقة بين شوبنهاور والنساء من منظور نفسي يميل إلى التحليل الفرويدي فيرى راؤول أن عقدة شوبنهاور تعود جذورها منذ أن كان طفلاً، ويحاول أن يستخلص من روايات متواترة

الأسباب إذْ يؤكد أن والدة شوبنهاور كانت تخون والده منذ أن كـان طفـلاً وأن شوبنهاور شاهد ذلك غير مرة[1(18)].

ويقول راؤول أيضاً إن إخفاق علاقته "بجوته" ليس السبب فيها نقده لهيجل وحسب بل أيضاً لأن جوته كان على علاقة قصيرة بوالدة شوبنهاور، وهذا ما يعزوه إلى أنها كانت تدير منزلها في فايمار كصالون يضم الأدباء والفنانين[(19)].

نستطيع أن نقول: إن عقيدة شوبنهاور وفلسفته غير الإيمانية أصـابته بوسـواس شديد أدى به أن يتجنب الناس ويعيش وحيداً بعيداً عن الضوضاء والزحـام... ومـع مناداة شوبنهاور في فلسفته دوماً باحتقار الشهوة والميل إلى الزهد إلا أنـه لـم يكـن

19- فرانكلين، ل، باومر، الفكر الأوربي الحديث،ج3،مرجع سابق،ص139،140 .

20- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل،ج2، ص 401، 403 .

21- المرجع السابق نفسه، ص 411 .

22- الترجمة الانجليزية للعنوان الألماني"Die Welt als Wile und Vorstellung"

يمارس هذه الحياة بشكل حقيقي، فقد كانت له علاقات نسائية من آن إلى آخر وكـان يحب دوماً أن يأكل من أفخر أنواع الطعام ويشرب أفخر أنواع النبيذ، كما كان يحـب دوماً أن يظهر بمظهر المترف[20]، وعند هذه النقطة أيضاً علينا أن نتوقف قليلاً. فقـد كان المفكرون يحسبون دوماً شوبنهاور على معـسكر الـرواقيين الـذين يحتقـرون الشهوات والملذات وينأون بالنفس البشرية ناحية السمو الفكـري والأخلاقـي، لكـن الحقيقة أن شوبنهاور نستطيع أن نعده من معسكر الأبيقوريين، فهو يتفق تمامـاً مـع آراء أبيقور الذي مع إقراره بأن اللذة مهلكة وتسد وجه الطريق إلى الحكمـة إلا أنـه أيضاً يعلي من شأنها وقد يستحب أن يجربها الإنسان مـرات لكـي يعـرف كنههـا وخطرها.

إذاً الازدواجية التي يعانيها شوبنهاور هي بسبب أنه نظريته تفارق أرض الواقـع بشكل كبير لأنه مع أنه يعلي من شأن فلسفات الزهد مثل البوذية وفلـسفات الـشرق الأقصى إلا أنه يقر أيضاً (على الأقل عملياً) بصعوبة ممارسة هذه الفلـسفات بـشكل واقعي وحقيقي وخصوصاً في المجتمع الأوروبي الممتلئ بالمغريات[21].

وفي عمله الكبير (العالم كإرادة وتصور)[22] يؤكد أن العالـم إرادة تقتـضي مـن الإنسان أن يبذل مجهوداً مضنياً مما يتبعه من شقاء وبؤس، وعلى الإنسان أن يختـار هدفه في هذا العالم إذْ لا جدوى من الهروب وعليه أن يواجه عالمه.

أكد شوبنهاور على ضرورة قهر الإرادة الداخلية المليئة (بالرغبـات والـشهوات وبكل ما يتعلق في تطلعات حياتية مادية). يساعدنا هذا على فهـم إيمانـه بالنيرفانـا "التناسخ في الديانة البوذية" من حيث دحضها لرغبات الإنسان الدنيوية علـى طريـق ذوبانه في "روح العالم" أو "الروح الكلي"[1(23)]. فضلاً عن إعـادة قراءتـه للمـسيحية

23- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، مرجع سابق، ص 294، 295 .

24- شوبنهاور وفلسفة التشاؤم، ترجمة وفيق غريزي، دار الفارابي 2008، ص 33 .

وعدها مبنية على التشاؤم الذي يعبر عنه مفهوم الخطيئة، وتقديره لمبدأ الصوم بما يحققه من العفة ونكران الذات وضبط الغرائز.

ثالثاً- فلسفة شوبنهاور:

حدد شوبنهاور مصادر فلسفته بثلاثة مصادر هي: أفلاطون وكانط والأوبانيشاد. يقول "غريزي" في تأثير أفلاطون وكانط: "الجانب الذي تأثر به، هو الجانب المشترك في كل من فلسفتي أفلاطون وكانط الذي انتقل إلى شوبنهاور. والواقع أن هذا الجانب يمثل نقطة الانطلاق في فلسفتي أفلاطون وكانط. فالمشكلة التي أثارها كل منهما هي مشكلة واحدة شعر بها شوبنهاور بقوة بعدهما، فقد فرق أفلاطون بين عالم الحواس والأشياء وبين عالم المعقولات أو المثل. وظهرت هذه التفرقة عند كانط بين العالم كتمثّل (العالم الظاهر) وبين العالم كإرادة (العالم كحقيقة). فعالم التمثل أو التمثلات عند شوبنهاور يناظر (عالم المحسوسات) عند أفلاطون و(عالم الظواهر) عند كانط، أما الإرادة فهي تناظر المثل عند أفلاطون، والشيء ذاته عند كانط"[24].

تقوم فلسفة شوبنهاور على قاعدتين أساسيتين؛ العالم تمثل، والعالم إرادة. وتبعاً للقاعدة الأولى لا يكون للعالم الخارجي أي وجود مستقل بل يكون العالم بأكمله من خلق أو تمثل الذات. ولهذا العالم نظام أو قانون يسير عليه هو قانون "العلة الكافية". فكل واحد من تمثلات الذات لا يقدم نفسه بشكل مستقل أو منفصل عن غيره وإنما بشكل متصل بسائر التمثلات الأخرى ومرتبط بها في انتظام. وقد تكلم شوبنهاور باستفاضة عن قانون "العلة الكافية" في كتابه الأول الموسوم باسم: "الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية" الذي يترجمه بعضهم باسم: "الأصل الرباعي لمبدأ السبب الكافي". ولفهم كتاب شوبنهاور الرئيس الموسوم باسم: "العالم كإرادة وتصور" ولاسيما المجلد الأول منه، لابد من الإلمام بكتاب "الأصل الرباعي". وشوبنهاور نفسه هو الذي يذكر صراحة أن هذا المجلد لا يفهم إلا إذا اتخذ كتاب "الأصل الرباعي" بمنزلة مقدمة

له[1(25)]. وأصل العلة الكافية، أصل رباعي، لأن له أربعـة مظـاهر: أولهـا مظهـر الصيرورة حيث يتحكم قانون العلية في تغير الظواهر ويربطها بعلاقة العلة والمعلول. وثانيها المظهر المنطقي المجرد، على نحو ما نجد في قوانين الذهن المنطقيـة حيـث تكون مقدمة منطقية ما علة أو أساساً لنتيجة. وثالثها المظهر الزماني والمكاني وأفضل مثال لها قضايا الهندسة إذْ علاقة ما تؤدي إلى علاقة أخـرى بالـضرورة. ورابعـاً المظهر النفسي أو الأخلاقي إذْ يؤدي باعث معين إلى ظهور فعل معين. ومن أجل فهم أفضل، علينا أن نتذكر دوماً أن هذه الأشكال أو المظاهر هي مظاهر أو أشكال مختلفة لمبدأ واحد هو مبدأ "العلة الكافية". وأن نتذكر أيضاً أن مظهر الصيرورة (أو التغيـر) يعد في رأي شوبنهاور أهم هذه المظاهر جميعاً. ولا عجب، فشوبنهاور من الفلاسـفة الذين يؤمنون بالتسلسل العلي المتصل وأن الصيرورة بالضرورة أزلية (لا بدء لهـا) أبدية (لا نهاية لها)، وينكرون من ثَم مفاهيم العلة الأولى، وعلة ذاته، والمطلق، ومـا إلى ذلك. ونظرة شوبنهاور إلى المادة نظرة مثالية، إذ يجعل المادة من صنع العقـل. ولذلك فهو يقلل في المبحث الخاص بنظرية المعرفة من قيمة الإدراك الحسي ويشكك في قدرة الحواس على أن تقدم لنا معرفة بالمعنى الصحيح. ويعلي من ثَم مـن قيمـة الإدراك العقلي فيقول: إن كل وجود خارجي مرده في الواقع إلى الذات أو العقـل[(26)]. ويبدو شوبنهاور في رأيه هذا متأثراً غاية التأثر بالفيلسوف كانط. ويظل هـذا التـأثر قائماً حتى عندما لا يستبقي شوبنهاور من مقولات كانط الذهنية الاثنتي عشرة سـوى مقولة العلية فقط مع إضافة صورتي المكان والزمان إليها، وهما بـدورهما ذاتيتـان كالعلية، أي لا وجود لهما خارج العقل. هذه هي صورة العالم كما تظهر لنا أو هـذا هو المظهر الذي يجعلنا مبدأ "العلة الكافية" نتمثل العالم عليه. بيد أنه مـن وراء هـذا المظهر أو الصورة ثمة كيان باطن يعد في الواقع بمنزلة قلـب الوجـود الحقيقـي.

25- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل، مرجع سابق، ص 169 .

26- فؤاد كامل، الفرد في فلسفة شوبنهاور، الهيئة المصرية العامة للكتاب1991، ص 23ـ29 .

ولنلاحظ مرة أخرى، التأثر بالفيلسوف كانط. فهذا الجوهر الباطن والسر الأعظم للوجود هو عينه "الشيء في ذاته". وهنا ننتقل إلى الكلام عن القاعدة الثانية التي ترتكز عليها فلسفة شوبنهاور، وهي أن العالم إرادة. أي ننتقل من صفة "المظهرية" الذي يكون فيه الوجود عبارة عن مظهر (أو مظاهر) تخلعه عليه الذات، إلى وجود الإرادة الأصيل الذي يتبدى على نحو مستقل ومباشر.

فكما تتحكم الإرادة البشرية في ظواهر الجسم الإنساني، تتحكم إرادة الكون أي جوهره الباطن الحقيقي وماهيته الأصلية في ظواهر المادة. ووراء الكثرة الموضوعية من الظواهر الفيزيولوجية والفيزيائية والنفسية، يكمن الكيان الأصلي الذي يتحكم فيها جميعاً؛ وذلك هو الإرادة الشاملة للعالم[1(27)].

من الملاحظ أن الإرادة في كلامنا العادي غالباً ما تكون ذات معنى محدد يربطها ببواعث عاقلة وبعملية "اختيار"، ولكن الإرادة عند شوبنهاور تبدو غير عاقلة وذات معنى عام. فكأن شوبنهاور يقول أول مرة بنزعة "إرادية" خالصة تجعل من الإرادة وليس العقل، الجوهر الباطن الحقيقي للوجود وللإنسان. سوف يكف الوجود ابتداء من هذه النزعة عن أن يكون تطوراً للعقل والمطلق على نحو ما نجد عند هيجل مثلاً. ولكن هذه اللامعقولية كلّها التي يتسم بها العالم ثمة طريق لقمع الإرادة يتكون من مرحلتين؛ إحداهما مؤقتة والأخرى نهائية كاملة. أما المرحلة المؤقتة فهي مرحلة الفن بوجه عام والموسيقى بوجه خاص حيث يمارس الإنسان نشاطاً مجانياً خالصاً من كل غرض ومن كل أثر لنزوع الإرادة أو طموحها. أما المرحلة النهائية للخلاص فهي مرحلة الأخلاق. عندما يدرك الإنسان الوحدة الكامنة وراء الكثرة البادية ويجمع الحب بين أفراد الناس بعد أن كانت الأنانية تفرقهم. أما الخلاص الكامل والمطلق من إرادة

27- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل، مرجع سابق، ص 171 .

الحياة فيتحقق بالوصول إلى حالة "النرفانا" حيث يمحى الشعور بالفردية والأنانية تماماً في حالة من الذوبان الكامل في الوجود الشامل[1(28)].

هكذا تكون دهشة القارئ لدى قراءة كتاب "العالم كإرادة وتـصور" هـو سـهولة أسلوبه ويسر فهمه. فقد خلا من تعقيد المصطلحات التي نجدها فـي كتـب "كـانط" والتشويش الموجود عند هيجل ومصطلحات الهندسة عند سبينوزا. فقد كان كل شـيء في كتاب شوبنهاور واضحاً ومنظماً ومركزاً تركيزاً يدعو إلى الإعجـاب بنظريتـه الأساسية وهي أن العالم إرادة، وعلى ذلك يكون العالم كفاحاً، ويترتب علـى الكفـاح بؤس وشقاء. فقد امتاز كتابه هذا بنزاهة البحث وأمانته وعنفه وعدم تـساهله، وجـاء زخراً بالأمثلة لتوضيح فكرته، وجديداً في فكاهته، وابتعاده عن الغموض الذي ميـز سابقيه من الفلاسفة، ولكن ما السبب في عدم رواج هذا الكتاب وكساده وعدم تحمـس القراء له؟ قد يكون السبب هو أن شوبنهاور هاجم في كتابه أولئك الـذين كـان فـي وسعهم الدعاية له، وهم أساتذة الجامعة، فقد كان هيجل الحاكم بأمره في عالم الفلـسفة في ألمانيا في عام 1818، ومع ذلك فإن شوبنهاور لم يعبأ به ولم يـضيع وقتـاً فـي مهاجمته ونقده. فقد ذكر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه: لا شيء يسيء للفلسفة في وقت من الأوقات أكثر من اتخاذها وسيلة لكسب الرزق، وعملوا وفقاً للمثل القائل من يأكل من مال السلطان يحارب بسيفه. فقد عد الفلاسفة الأقدمون اكتساب المـال عـن طريق الفلسفة صفة من صفات السفسطائيين[(29)].

اعتاد شوبنهاور أن يقول: "إنني لا أرى شيئاً تم تحقيقه في الفترة الواقعة بين كانط وبيني .. أعتقد أن هذه الفكرة وهي أن العالم إرادة هي الفكـرة التـي بحثـت عنهـا

28- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، مرجع سابق، ص 295 .

29- ول ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص397،398 .

30- المرجع السابق نفسه، ص 398 .

31- المرجع السابق نفسه، ص 399 .

الفلسفة، إن ما أقصده فقط هو تعريف فكرة واحدة فقط وشـرحها، ومـع محـاولاتي جميعها في إيجاز شرحها لم أجد وسيلة لاختصارها بأقل من هذا الكتاب.."[30]. اقـرأ الكتاب مرتين، مستخدماً الصبر وطول البال في المرة الأولى. لـيس الاعتـدال فـي الفلسفة سوى نفاق وتواضع مصطنع[31].

ولكنا لا نجد تواضعاً في العبارة الأولى التي صدر بها شوبنهاور كتابه الذي بدأه بقوله "العالم فكرة" وهو يقصد بذلك ما ذهب إليه "كانط" من أننا نعرف العالم الخارجي عن طريق إحساساتنا وأفكارنا. واتبع شوبنهاور هذا بعرض واضح قـوي للمـذهب المثالي، ولكن هذا العرض مع قوته أضعف أجزاء الكتاب وأقلها أصالة فـي الـرأي. واستناداً إلى ما سبق، يمكن تلخيص الأسس التي قامت عليها فلسفة شوبنهاور علـى النحو الآتي:

أولاً: إن الوجود عبارة عن المادة المطلقة، فليس في الوجود سوى المادة.

ثانياً: إن العلم عبارة عن (إرادة وفكرة).

ثالثاً: الإرادة الكلية في الطبيعة عنايتها تنصب على الحفاظ على الحياة في الأنـواع، ولذلك تهتم بالإبقاء على الأنواع في النبات والحشرات والحيوان والإنسان، وهي فـي اهتمامها بالنّوع، لا تلقي بالاً إلى الأفراد الـذين تطحـنهم الآلام، ويعـذّبهم الـشقاء، ويغرقون في بحار المآسي والشرور.

رابعاً: الموت هو عدو الإرادة الكلية، وهو الذي يحـاول أن يقـضي علـى الحيـاة والأحياء، ولكن الإرادة الكلية تهزمه عن طريق غريزة الجنس التي تدفع الأحياء إلى التزاوج والتناسل، وبذلك تعوض الإرادة عن طريق النسل ما يأخذه المـوت، وتبقـي الحياة والأحياء تحقيقاً لرغبة الإرادة الكلية.

خامساً: الحياة كلّها، بل الوجود كلّه شرور وأحزان ومشقّات وآلام، وليس في الوجود كلّه خير قطّ، ولا يعرف معنى السعادة، وأقصى ما يتصور من خير في الوجـود، أن تقلّ شروره نوعاً أو تخفّ آلامه هوناً. الشر والشّقاء والتعاسة هـي جـوهر الحيـاة، وحقيقة الوجود، وهذه الأشياء هي الجانب الإيجابي في الحياة. أما ما يسمى بالسعادة، أو اللذة، أو الخير أو غير ذلك، فليست أموراً إيجابية، بل هي أمور سلبية، بمعنـى أن السعادة ليست إلا سلب الآلام، واختفاء الشّقاء أو التّخفيف منه قليلاً، ومن ثم فلا وجود لشيء اسمه السعادة أو اللذة، ولكن هناك شقاء وتعاسة وآلام، قد تكون شـديدة، وقـد تخفّ قليلاً أو كثيراً، فيسمي الناس هذه الحالة سعادة أو لذّة.

سادساً: وسيلة الإرادة الكلية في تنفيذ غايتها من بقاء النوع في الإنسان أمران: العقل، والغريزة الجنسية.

سابعاً: عود إلى ما قرره فيلسوف التشاؤم، من أن الوجود كلّه شر. فالوجود شر، لأن الألم والتعاسة هما الشيء الإيجابي، وأما ما نسميه سعادة ولذّة، فهو أمر سلبي، فـلا يزيد على كونه سلباً للألم أو تخفيفاً منه للّحظة، ثم تنتهي تلك اللحظة ليأتي الألم مـن جديد.

ثامناً: لكلّ ما تقدم من أدلة على أن الحياة آلام، والوجود شر – فيما يزعم شـوبنهاور - فإن الفيلسوف يدعو إلى نبذ الحياة – ويرغب في الانتحار تخلصاً من شقاء الحيـاة وشرورها. والفيلسوف – وهو يرغب في الانتحار ويدعو إليه – يبين أن الموت فـي ذاته لا يسبب للإنسان ألماً قطّ، ولكن النّاس يتألّمون من فكرة الموت أكثر مما يتألّمون من الموت نفسه؛ لأن الإنسان لا يلتقي بالموت قطّ، فكيف يتألّم منه؟ إن الإنسان ما دام هو حي لم يمت، فهو لا يرى الموت ولا يلتقي به، ومن ثَم لا يتألّم منه، فإذا ما انتحر الإنسان ومات، فإن الموت حين يجيء يكون الإنسان قد ذهب، وعلى ذلك فالإنـسان

يخاف من فكرة الموت، لكن الموت حين يجيء ويقع يكون الإنسان قد استراح من شقاء الحياة وآلامها، وتخلّص نهائياً من الإرادة الكلية العمياء الشريرة[(32)1] .

بقي شوبنهاور مجهولاً من العالم جيلاً من الزمان لأنه أخفى أفكاره وراء مئتي صفحة تحدث فيها عن المذهب المثالي. إن أهم جزء في الفصل الأول من الكتاب هو هجومه على المذهب المادي. فهو يتساءل: كيف يمكننا أن نفسر العقل بأنه مادة ما دمنا لا نعلم المادة إلا عن طريق العقل؟

"كلا من المستحيل أن نصل إلى حل لغز الميتافيزيقا، وأن نستكشف كنه الحقيقة، بأن نبدأ نبحث المادة أولاً، ثم ننتقل منها إلى بحث الفكر، بل يجب أن نبدأ بذلك الذي نعرفه معرفة مباشرة قريبة (معرفة أنفسنا). إننا لن نصل أبداً إلى طبيعة الأشياء الحقيقية من الخارج، مهما طال بحثنا ولن نصل إلى شيء سوى صور وأسماء"[(33)].

كشف شوبنهاور عن ضعف الجنس الإنساني وقصوره نحو الكمال وربما أيضاً نحو بعض السمو، فالحيوانية البشرية والصراع نحو المادة هي السمة التي استطاع أن يكتشفها في البشر وفي عمله الخالد "العالم كإرادة وتصور" إذْ عد أن البنية الصحيحة للحكمة هي أن يكون لدى العقل البشري إرادة ما تسكنها الفكرة الواقعية في معالجة المعضلات التي هاجمت الفكر الإنساني واستقراره على مدار ألفي عام من التفكير الفلسفي... وفي عمله الكبير (العالم كإرادة وتصور) يؤكد أن العلم إرادة تقتضي من الإنسان أن يبذل مجهوداً مضنياً مما يلحق به من شقاء وبؤس، وعلى الإنسان أن يختار هدفه في هذا العالم إذْ لا جدوى من الهروب وعليه أن يواجه عالمه[(34)2].

32- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل،ج1، مرجع سابق، ص 219 .

33- ول ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص 399 .

34- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف بمصر 1949، ص 272ـ 275 .

34- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف بمصر 1949، ص 272ـ 275 .

لا نجانب الصواب إذا ما قلنا إن شوبنهاور هو حام الواقعيـة الفلـسفية، وربمـا نستطيع أيضاً أن نطلق عليه حام الإرادة البشرية.

من المعروف أن شوبنهاور يصنف بوصفه مؤسساً للتشاؤمية الحديثة، وقد تناولته دراسات عدة بالمقارنة بمؤسس التـشاؤمية الأول أبـو العـلاء المعـري[35]. يقـول شوبنهاور: "الحياة لا تضم غير الشقاء والتعاسة التي يبتلي بها الإنسان ويتعذب فيها". وفي موضع آخر: "العالم شر وسوء؛ لأن الإرادة هي التي تدفعنا لهذا الـشيء أو ذاك بما يجعل من المستحيل أن نحيا في سعادة كاملة. بل لا يمكن أن نصل إلى تحقيقهـا. وإن الذين تقع لهم ما يسمونه بالسعادة هي في حقيقة جوهرها سلبية، لأنـه لا يمكـن إدراك قيمتها إلا إذا فقدناها"[36].

من الجدير بنا أن نتساءل: هل شوبنهاور فيلسوف وجودي أم فيلـسوف فكـري؟ بمعنى آخر، هل جاءت فلسفته نتيجة لحالته الوجودية التي عاشها، أم جاءت فلـسفته صدى لفكره وتجربته الفكرية الفلسفية الخالصة؟ ومن هنا لابد من التفريق بين التشاؤم السيكولوجي والتشاؤم الميتافيزيقي، ونرى أن تشاؤم شوبنهاور كان من النوع الأخيـر الناتج عن فكر وفلسفة أكثر من أن يكون ناتجاً عن حياة ومعاناة.

أعتقد أن الخيط الرفيع الذي يتجاهله الجميع في النظر إلى شوبنهاور، لو أردنا أن نربط فلسفته بشخصيته، هي تلك التركيبة النفسية العصبية الجسدية الفردية التي يرجع لها الفضل في كثير من فعاليات حياة الإنسان وفي مواقفه النفسية وفكره الفلسفي. فقد كان شوبنهاور بتركيبته تلك صاحب موقف متشائم، هذا لو سلمنا – أصلاً – بمفهـوم التشاؤم في فلسفته، وهذا ينقلنا للنقطة التي أريد أن أثيرها هنا وهي: هل فعـلاً كـان شوبنهاور متشائماً في فلسفته؟ وهل التشاؤم صفة فلسفية، يصح أن نطلقها على نـوع

35- عبد الرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوربي "شوبنهاور" دار القلم بيروت د.ت.، ص 259 .
36- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل،ج1، مرجع سابق، ص 402 .

من الفلسفة؟ أم هي موقف نفسي من الحياة والوجود؟ لعل النظر إلى حيـاة وفلـسفة شوبنهاور تمنحنا معنى جديداً للتشاؤم قد يختلف عن السائد والمنتشر في فلسفته، فأرى أنها لم تكن فلسفة متشائمة بل كانت فلسفة "عدمية"، فعندما يتأمل الإنسان في مسارات الحياة الإنسانية ويتناول مختلف مراحلها ويطلع على تجاربها وأحزانها ... ويصل إلى نتيجة مؤداها ما وصلت إليه التجربة الإنسانية فإن ذلك يدفعنا إلى ما نطلق عليه معنى "العدم" أي إننا نرى ما وراء الحياة فتزيد رؤيتنا للموت أكثر منها، وننظر إلى ضـوء الشمس فلا نستطيع أن نتناسى الظلام الذي سيحل بعدها، ونرى الصحة فتطاردنا حالة المرض، ونشاهد الزهرة فلا يسعنا إلا أن نلتفت إلى مـا ينتظرهـا مـن فنـاء[1(37)]. لعل تلك النظرة العدمية (التي سميت تشاؤمية) هي التي ترجح رؤيـة العـدم (ضـد الحياة) على الوجود وما فيه من فعاليات، وهذا ما يدفعنا إلى رؤية فلسفته "المثاليـة". فالفلسفة المثالية هي الفلسفة التي تقيم صرحها الفكري بناء على المفاهيم "المطلقة" ولا نعني بها أي جانب سلوكي أو حكم قيمة من أي نوع، ومن هنا وجدنا أنها تجاوب مع الرؤية الدائمة والمستمرة والملاصقة للذات لهذا العدم، فقد أتـت فلـسفة شـوبنهاور "مثالية" أي إنها تنأى عن الواقع ومفرداته وتصدر منظومتها الفكريـة عـن الأحكـام المطلقة الثابتة لا الأحكام النسبية المتغيرة، وكان الحكم المطلق الـذي لا يتغيـر فـي فلسفة شوبنهاور هو حكم "العدم" الذي يطّرد في كل كائن وجودي من كائنات الوجـود الأرضي الذي نراه حولنا في مختلف مظاهر الحياة الفانية والزائلة.

فلسفة شوبنهاور هي فلسفة تهدف إلى فهم العالم بمكوناته كلّها سواء الحيـة مـن إنسان وحيوان ونبات أم من المواد غير الحية. ويخرج شوبنهاور من ثنائيـة الـذات والموضوع. بمعنى أن الخلاف الشهير بين المثاليين والماديين في نظريـة المعرفـة باعتبار أن المعرفة التي نكونها عن الأشياء هل هي موجودة فعلاً فـي الأشـياء أم إ،

37- ول ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص 417 .

ذواتنا هي التي تنتج هذه المعرفة وفق رؤاها الخاصة؟ شوبنهاور يرى أن هذا جـدال في غير محلّه فلا الذات وحدها قادرة على إنتاج معرفة عـن الأشـياء ولا الأشـياء لوحدها يمكن أن تشكل معرفة دون الذات العارفة. الذي يحصل عند شـوبنهاور هـو التمثل، الذي هو التقاء بين الذات والشيء1(38).

على أية حال ظل شوبنهاور الفيلسوف الذي يعرف بتشاؤمه هـو الأشـهر بـين فلاسفة أوروبا بمناداته بالتجرد من المادية مع عدم ممارسته لذلك، والعقل عنده لـيس المحرك الأساسي للإنسان فوراء ذلك العقل هناك قوى شعورية ولا شعورية تـستطيع أن تلغي قدرة العقل في حالات كثيرة، ومن هنا يعد جوهر الإنسان بوصفه ممارسـاً للإرادة الحرة هو الأسمى والأكثر أهمية من العقل.

ويخالف شوبنهاور العقيدة المسيحية في أفكار كثيرة منها خلـود العـذاب ومنهـا معرفة الذات للوصول للجنة وهذا ما دفع بعض الجامعات في أوائل القرن العـشرين وبإيعاز من البابا منع تدريس شوبنهاور في المناهج الجامعية لكن الدوائر الأكاديميـة في ألمانيا ثارت في ذلك الوقت وأعادت شوبنهاور إلى المناهج تعبيراً عـن الحريـة الفكرية(39).

الأهم من ذلك أنّه مع تلك النماذج المحافظة في الفلسفة الغربية إلا أن شـوبنهاور وهو الفيلسوف غير المؤمن بالمسيحية يلقى ذلك الرواج بعد وفاته سواء في أوروبـا وأمريكا، أما المنطقة العربية بقيت بمنأى عن أثره وتأثيره!؟

38- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل،ج1، مرجع سابق، ص 492 .

39- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، مرجع سابق، ص284، 285 .

رابعاً- ما سر التأثير الكبير لفلسفة شوبنهاور عالمياً ؟

تعد فلسفة شوبنهاور من الفلسفات الحية مع ما فيها من تناقضات. ولكي تكون الفلسفة صورة صادقة للحياة لا بد لها من أن تنطوي على ما في الحياة من تناقض. كما يمتاز شوبنهاور عن غيره من الفلاسفة بدراسته المباشرة للأشياء كما تقع تحت حسه مباشرة. وهذه الملكة هي ما يسمى بحاسة الواقع sense of reality فنراه لا يحلّق في الخيال، ولا يهيم في التصورات المجردة الجافة، ولا يبني قصوراً من الأفكار العامة الزائفة كما فعل هيجل وأمثاله[1(40)].

بناءً على ما تقدم، نعتقد أن شوبنهاور قد جعل الإنسان محور دراسته، ومن هذه الناحية يمكن أن نعد فلسفته إرهاصاً قوياً للفلسفة الوجودية في العصر الحديث. والحق أن دراسة شوبنهاور للإنسان واهتمامه بمصيره، ورغبته في خلاصه... قد وسمت فلسفته بالطابع الإنساني. إن إنسانية شوبنهاور بوصفها إنسانية واقعية متشائمة لم تمنعه من أن يكون إنسانياً.

ومهما يكن في الأمر فإن فلسفة شوبنهاور تقوم على وجدان أو حدس أو رؤية، فهي ذات طابع صوفي وجداني، وهي فلسفة قائمة على التجربة. فقد اتسم أسلوبه "في كتاباته" بالرصانة والشفافية والوضوح، وقد كان لهذا الأسلوب الصادق أكبر الأثر في انتشار فلسفته عالمياً.

اتسمت فلسفة شوبنهاور بالطابع اللاعقلي irrationnelle، إذْ جعل الإرادة عمياء طائشة، وبذلك حطم النزعة العقلية في تفسير تصرفات الإنسان إذ جعل الإرادة هي التي تملي هذه التصرفات وليس العقل، وهو بهذا يتأثر بالرومانتيكية الثائرة على النزعات العقلية في ذلك العصر[(41)].

40- فؤاد كامل، الفرد في فلسفة شوبنهاور، مرجع سابق، ص 130 .

41- المرجع السابق نفسه، ص 129ـ131 .

من البين أن شوبنهاور أثناء إقامته في هامبورج وبتأثير المدرسة الرومانـسية مـن الأدباء الألمان مثل:هوفمان ونوفالس وشلينغ تأثر بالفكر الإغريقي القـديم ثـم بـالفكر الأسيوي.

ما نريد ذكره أن بذور الفلسفة الشوبنهاورية ما زالت حية، وأنها ما برحت تلهـم كبار الفلاسفة الأفكار الخصبة، على سبيل المثال لا الحصر، تأثر بـه كتّـاب مثـل تولستوي وتوماس هاردي وتوماس مان ونيتشه وفرويد وفتغنشتاين وفاغنر...الخ.

من الملاحظ أن برجسون قد أخذ كثير عن شوبنهاور _ خاصة في كتابه التطـور الخالق_، وفلسفة البراجماتزم تستمد أصولها من مذهب شوبنهاور للإرادة1[(42)]. كمـا تأثر الفيلسوف الروسي برديائيف بفلسفة شوبنهاور، إذْ يقـول: إن مرحلـة يقظتـي الروحية كانت فلسفة شوبنهاور هي التي أثّرت في أكثر من الكتاب المقدس. ويـرى اشبنجلر أن شوبنهاور يعد منشئاً لعلم الأخلاق الحديث[(43)].

أعجب الفيلسوف الدانماركي كيركجارد بفلسفة شوبنهاور لأنها تشترك مع فلسفته في نقد هيجل مع اختلاف النقد فيما بينهما، ولعل كيركجارد كان من أهم الأسباب التي أدت إلى شهرة شوبنهاور في نهاية حياته ولاسيما بعد أفول نجم هيجل، وكان الـسبب في ذلك أيضاً مقال كتبته مجلة وستمنستر الإنجليزية عن شوبنهاور بعنـوان "تحطـيم الأصنام في الفلسفة الغربية" والحقيقة أن هذا المقال من أجمل ما كتـب فـي تـاريخ الفلسفة وكان له انتشار واسع في أوروبا كلها فأعيدت ترجمته إلى لغات عـدة منهـا الألمانية حيث لفت الأنظار بشكل قوي إلى شوبنهاور نفسه في ألمانيا، ووصل صـيته إلى أمريكا التي تلقفت أفكار شوبنهاور بشهية مفتوحة، وأصبح من أهم الفلاسفة الذين شاركت أفكارهم في تأسيس الفلسفة الأكاديمية الأمريكية[(44)]. ولا ننسى ما قاله عنـه

42 - برتراند رسل، حكمة الغرب،ج2، ترجمة فؤاد زكريا،عالم المعرفة الكويتية1978،ص148 .
43- فؤاد كامل، الفرد في فلسفة شوبنهاور، مرجع سابق، ص128، 129 .
44- انظر: جون أكسفورد، جـوهرة الفلـسفة الألمانيـة، مجلـة "مراجعـة وستمنـستر" السلـسلة الجديدة/العدد1853/3، ص 398 ـ 407 .

ماركيوز في هذه الصدد إذْ قال:"لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية التي ناصبت العداء لماركس وفريقه تنظر نبيا يبعث في الفلسفة خير من شوبنهاور الذي أصبح يمثل مثالاً شديد الأهمية لازدواجية العقلية الأمريكية"[45].

وتبعاً لذلك، فإن جمعية الفلسفة الأمريكية احتفلت بصدور الطبعة المئة مـن عمـل شوبنهاور العظيم (العالم كإرادة وتصور) إذْ قررت أيضاً اختيار شوبنهاور من ضـمن عشرة فلاسفة قلبوا ميزان الفكر الفلسفي في الخمسمئة عام الأخيرة، وتهتم جمعية الفلسفة الأمريكية بنشر معظم مؤلفاته الآن لأن تراث شوبنهاور كان مهدداً بالضياع لعدم إقبـال دور النشر في أوروبا على نشر مؤلفاته ما عدا موطنه ألمانيا التي تكاد تحتفل به بعض الجامعات بشكل أكاديمي وغير دائم، ولعل السبب في ذلك غريباً أشد الغرابة وهو النقـد الدائم في مؤلفات شوبنهاور لهيجل الفيلسوف المفضل لدى سبعين بالمائـة مـن قـراء الفلسفة ودارسيها في العالم أجمع، ولعلنا نصدق ما قاله الأديب الألماني الكبيـر جـونتر جراس حينما قال "نحن نعيش في عالم هيجلي بحت"1[46]، وكان ذلك أيضاً بغرض النقد حيث يتجاهل معظم النقاد دور فلاسفة ألمانيا بالقياس لدور هيجل.

وخلاصة القول إن فلسفة شوبنهاور أثّرت في الأدب تأثيراً كبيراً ولاسيما أعمـال (تولستوي) وفي أهم أعماله تحديداً (الحرب والسلام) و(أنا كارينا) فكان يحمل أبطاله إلى حلبات الرقص لإراحتهم منطلقاً في ذلك من المنطلق الشوبنهوري في إيجاد سكون النفس بحركة الموسيقى ومن ثَم خلاصها من الإرادة .

وإذا ما انتقلنا إلى محطة تاريخ الكتابة الفلسفية العربية نلاحظ أن المفكر المصري الراحل عبد الرحمن بدوي، كان من أكثر الباحثين العرب اهتماماً بشوبنهاور، كما كان متأثراً به وبما رأى عنده من نزعات وجودية مبكرة، ولهذا نجده منذ بدايـة سـنوات

45- Manfred Buhe, Einzyklopädie zur bürgerlichen Philosophie im 19. und 20. Jahrhundert,Leipzig 1988, S.315 .

46- المرجع السابق نفسه، ص316، 319 .

الأربعين يفرد له كتاباً يعرض فيه فلسفته وحياته في لغة شاعرية لا يفوتها أن تخلق نوعاً من التوحد بين فكر شوبنهاور وفكر بدوي، حيث يصعب على القارئ معرفة الحدود الفاصلة بين من يكتب ومن يكتب عنه.

وألّف الأستاذ فؤاد كامل كتابه الأخير الموسوم (الفرد في فلسفة شوبنهاور) الصادر عن هيئة الكتاب. يعرض لفلسفة شوبنهاور التي تسعى إلى خلاص الإنسان. هذا الخلاص الذي يقوم على دعامتين: الخلاص بالفن، أي تأمل الكون والحياة تأملاً نزيهاً خالياً من الغرض أو شوائب الإرادة. ثم الخلاص بالزهد الذي يتم بسحق الإرادة، مصدر الشرور جميعاً في هذا العالم[47].

كما شرع سعيد توفيق، (أستاذ الفلسفة المعاصرة وعلم الجمال بكلية آداب القاهرة)، منذ مدة يترجم كتاب شوبنهاور" العالم كإرادة وتصور" وقد أنهى مؤخراً ترجمة المجلد الأول منه وأصدره المشروع القومي للترجمة بمصر في أربعة أجزاء (كتاب مستقل لكل فصل من فصول المجلد الرئيس الأربعة). وسعيد توفيق هذا هو نفسه مؤلف أحد أهم الكتب التي صدرت بالعربية عن شوبنهاور وأقصد به كتاب ميتافيزيقا الفن عند شوبنهاور عام1983 . كما ألّف الكاتب اللبناني "وفيق غريزي" كتاباً عن شوبنهور بعنوان "شوبنهور وفلسفة التشاؤم"، الصادر عن دار الفارابي 2008 .

واستناداً إلى ما سبق، فإن شوبنهاور، مع تهويله وتطرفه، فقد علّمنا ضرورة العبقرية، وقيمة الفن، ورأى أن الجمال هو الخير النهائي، وان إبداع الجميل هو السعادة. ونادى بتعظيم الأبطال وتمجيدهم ورفع منزلتهم في وقت كفر فيه الناس بكل عظمة وعظيم. ومع أخطائه جميعها فقد أفلح في وضع اسمه في قائمة العظماء[1(48)].

وصفوة القول: إن الفيلسوف الألماني "آرثر شوبنهاور" يظل لغزاً في تاريخ الفلسفة، تستطيع أن تفهم منه القليل، وتتخيل في فلسفته الكثير.

47- فؤاد كامل، الفرد في فلسفة شوبنهاور، مرجع سابق، ص 17 .

48- ول ديورانت، قصة الفلسفة، مرجع سابق، ص450، 451 .

مصادر ومراجع البحث

1- آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثل، ترجمة ت. ب. هالدين، ج. كيمب، لنـدن بوتلدج وكيجان بول ، ط9، مجلد1، لندن 1833.

2- أميل برهية، تاريخ الفلسفة،ج6، القرن 19، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت ط1، 1985.

3- برتراند رسـل، حكمـة الغـرب،ج2، ترجمـة فـؤاد زكريا،عـالم المعرفـة الكويتية1978.

4- جون أكسفورد، جوهرة الفلسفة الألمانية، مجلة "مراجعـة وستمنـستر" السلـسلة الجديدة/العدد3/ 1853 .

5- جيل دولوز، نيتشه، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنـشر والتوزيع،ط1، بيروت 1998.

6- عبد الرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوربي "شوبنهاور" دار القلم بيروت د.ت.

7- عبدا المطيري، شروط التفلسف، صحيفة الرياض السعودية، مؤسسة اليمامـة الصحفية، 2008/9/18/ العدد 14696.

8- فرانكلين، ل، باومر، الفكر الأوربي الحديث، ج3، ترجمة أحمد حمدي محمـود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1989.

9- فريدريش نيتشه، العلم الجذل، ترجمة سعاد حرب، دار المنتخب العربي 2001.

10- فريدريش نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تعريب سهيل القـش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط2، بيروت 1982.


11- فريدريش نيتشه، عدو المسيح، ترجمة جورج ميخائيل ديب، ط2، دار الحوار د.ت.

12- فؤاد كامل، الفرد في فلسفة شوبنهاور، الهيئة المصرية العامة للكتاب1991.

13- محمد جلوب الفرحان، اتجاهات الفلسفة الألمانية المعاصرة، أوراق فلسفية جديدة،المجلد الثالث/العدد6/ ربيع 2012، مركز دريد للدراسات، لندن.

14- وفيق غريزي، شوبنهاور وفلسفة التشاؤم، دار الفارابي 2008.

15- ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح ا محمد المعشعش، ط6، مكتبة المعارف بيروت 1988.

16- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف بمصر 1949.

17- Russell, B. History of western philosophy, London 1747.

18- Manfred Buhe, Einzyklopädie zur bürgerlichen Philosophie im 19. und 20. Jahrhundert,Leipzig 1988.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2013/6/5.